

كيف تحوّل فلسطين في الخطاب السعودي



في محاولة لفهم كيفية انتقال فلسطين من موقع القضية المركزية في الوعي السياسي والإعلامي العربي إلى موقع مختلف تحكمه أولويات الدولة الوطنية ومصالحها المباشرة، ولا تقتصر أهمية الدراسة على رصد المواقف السياسية أو متابعة التغيرات الإعلامية فحسب، بل تمتد إلى تحليل التحولات الفكرية والثقافية التي أعادت تعريف العلاقة بين "السعودية" والقضية الفلسطينية، والكيفية التي جرى من خلالها إعادة ترتيب الأولويات داخل المجال العام السعودي.

تنطلق الدراسة من ملاحظة أساسية مفادها أن القضية الفلسطينية لم تكن في التاريخ العربي المعاصر مجرد ملف سياسي خارجي، بل مثلت لعقود طويلة عنصراً مركزياً في تشكيل الوعي القومي العربي والإسلامي، ومصدراً للشرعية السياسية، ومعياراً للحكم على المواقف والتحالفات الإقليمية والدولية. ولهذا فإن أي تحول في موقع فلسطين داخل الخطاب العام لا يمكن النظر إليه بوصفه تغييراً عادياً في

الاهتمامات السياسية، بل باعتباره تحولاً يمس تصورات الهوية والانتماء والأولويات. ومن هذا المنطلق تحاول الدراسة الإجابة عن سؤال جوهري: كيف انتقل الخطاب الإعلامي السعودي من اعتبار فلسطين قضية مركزية لا ينارعهها ملف آخر، إلى خطاب يطرح بصورة متزايدة فكرة أن مصالح "السعودية" يجب أن تأتي أولاً؟

وتوضح الدراسة أن الخطاب الرسمي السعودي حافظ طوال هذه السنوات على تأكيده المستمر لحقوق الفلسطينيين ودعمه المعلن لقيام دولة فلسطينية مستقلة، كما استمر في وصف القضية الفلسطينية بأنها قضية محورية في الشرق الأوسط. إلا أن الدراسة تميز بين الخطاب الدبلوماسي الرسمي وبين ما تسميه «المجال الخطابي الأوسع»، أي النقاشات الإعلامية والثقافية والفكرية التي شهدت تحولات ملحوظة خلال العقدين الأخيرين. فالمسألة، بحسب الدراسة، لا تتعلق بوجود فلسطين أو غيابها من الخطاب، وإنما بالموقع الذي باتت تحتله داخل سلّم الأولويات السياسية والأخلاقية.

من مساءلة القيادات الفلسطينية إلى مساءلة مركزية القضية:

تري الدراسة أن نقطة التحول الأولى بدأت تتبلور بعد عام 2007، في أعقاب الانقسام الفلسطيني بين حركتي فتح وحماس وانهيار اتفاق مكة الذي رعته الرياض. ففي تلك المرحلة بدأ النقد الإعلامي يتجاوز

التركيز على أداء القيادات الفلسطينية لينتقل تدريجياً إلى مساءلة القضية نفسها وموقعها في الوعي العربي. وبدلاً من الاكتفاء بانتقاد الانقسامات الفلسطينية، برزت أسئلة جديدة حول مدى جدوى استمرار اعتبار فلسطين القضية الأولى بالنسبة للسعوديين والعرب.

وتشير الدراسة إلى أن هذا التحول لم يظهر في صورة دعوات صريحة للتخلي عن فلسطين أو دعم الاحتلال الإسرائيلي، بل تجسد في خطاب أكثر تعقيداً يدعو إلى إعادة ترتيب الأولويات. فبدأت تتردد أفكار تؤكد أن مشكلات التنمية والاقتصاد والأمن الداخلي في "السعودية" ودول الخليج تستحق اهتماماً أكبر من القضايا الخارجية، وأن الوقت قد حان للانتقال من منطق القضايا القومية الكبرى إلى منطق الدولة الوطنية ومصالحها المباشرة.

وفي هذا السياق برز عدد من الكتّاب والإعلاميين الذين دعوا إلى إعادة النظر في المكانة الاستثنائية التي حظيت بها القضية الفلسطينية داخل المجال العربي لعقود طويلة. ووفق الدراسة، فإن جوهر هذا الخطاب لم يكن إنكار عدالة القضية الفلسطينية، وإنما التشكيك في فكرة أن تكون القضية المحدد الأساسي للسياسات العربية أو معياراً للحكم على نجاح الدول وإخفاقها. وبذلك بدأت عملية انتقال تدريجية من مفهوم «مركزية فلسطين» إلى مفهوم «أولوية الدولة الوطنية».

وتوضح الدراسة أن هذا التحول اكتسب زخماً إضافياً مع التغيرات الإقليمية التي شهدتها المنطقة بعد عام 2011. فقد ظهرت أزمات وصراعات جديدة، من الحرب في اليمن إلى الأزمة السورية وصعود الجماعات المتطرفة والتوترات الإقليمية المتصاعدة، ما ساهم في دفع قطاعات من الإعلام السعودي إلى التعامل مع هذه الملفات باعتبارها أكثر إلحاحاً وتأثيراً على الأمن الوطني من القضية الفلسطينية. وهكذا لم تعد فلسطين تحتكر موقع القضية المركزية الوحيدة، بل أصبحت جزءاً من مجموعة أوسع من القضايا التي يجري تقييمها وفق معيار المصلحة الوطنية.

صعود خطاب «السعودية أولاً»:

تعتبر الدراسة أن الفترة الممتدة بين عامي 2019 و2022 مثلت مرحلة جديدة وأكثر وضوحاً في مسار التحول. ففي هذه السنوات لم يعد الجدل مقتصرًا على أولوية الداخل السعودي أو على نقد الفصائل الفلسطينية، بل ظهر خطاب يسعى إلى إعادة تقييم العلاقة السعودية الفلسطينية برمتها.

وتصف الدراسة هذه المرحلة بأنها مرحلة «كشف الحساب»، حيث جرى طرح أسئلة من قبيل: ماذا قدمت "السعودية" للقضية الفلسطينية على مدى العقود الماضية؟ وما الذي حصلت عليه في المقابل؟ وهل يجب أن تظل السياسة السعودية تجاه "إسرائيل" مرتبطة بالكامل بالمواقف الفلسطينية وخيارات القيادات الفلسطينية؟ وتؤكد الدراسة أن أهمية هذه الأسئلة لا تكمن فقط في مضمونها، بل في كونها تنقل النقاش من الحديث عن الحقوق الفلسطينية إلى الحديث عن المصالح السعودية.

وتزامنت هذه التحولات مع التغيرات الإقليمية المرتبطة باتفاقات أبراهام وتوسيع دائرة العلاقات العربية مع "إسرائيل". ففي ظل هذا الواقع الجديد لم تعد فكرة التطبيع تبدو احتمالاً نظرياً بعيداً، بل أصبحت خياراً سياسياً مطروحاً للنقاش في المنطقة. وهنا ظهر اتجاه إعلامي يدعو إلى الفصل بين الموقف من القضية الفلسطينية وبين إدارة العلاقات الإقليمية، معتبراً أن المصالح الوطنية

يجب أن تكون العامل الحاسم في اتخاذ القرارات السياسية.

كما رصدت الدراسة اتجاهًا متزايدًا لتحميل الفلسطينيين مسؤولية جزء من التراجع الذي أصاب مكانة قضيتهم في العالم العربي. فقد جرى التركيز على الانقسامات الداخلية والصراعات السياسية الفلسطينية باعتبارها أسبابًا رئيسية لفقدان التعاطف الشعبي والرسمي. وبحسب الدراسة، فإن هذا الخطاب ساهم في نقل مركز المسؤولية عن القضية من الإطار العربي العام إلى الفلسطينيين أنفسهم، وهو ما مثّل تحولًا مهمًا في طبيعة النظر إلى الصراع.

ومع ذلك تؤكد الدراسة أن معظم هذه الطروحات لم تصل إلى حد رفض الحقوق الفلسطينية أو الدعوة الصريحة للتخلي عنها. بل كانت تقوم على التمييز بين دعم الفلسطينيين وبين اعتبار فلسطين أولوية سياسية عليا. فبحسب هذا المنطق يمكن تأييد إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وفي الوقت نفسه رفض جعل القضية المحدد الرئيسي للسياسة الخارجية أو للعلاقات الإقليمية.

وترى الدراسة أن هذا التمييز كان من أبرز سمات الخطاب الإعلامي الجديد، لأنه سمح بإعادة ترتيب الأولويات دون الاضطرار إلى التخلي العلني عن المواقف التقليدية المؤيدة للحقوق الفلسطينية. وهكذا انتقل النقاش من سؤال «هل فلسطين قضية عادلة؟» إلى سؤال «ما المكانة التي ينبغي أن تحتلها فلسطين ضمن أولويات الدولة الوطنية؟».

تخصص الدراسة جزءاً مهماً من تحليلها للفترة التي أعقبت اندلاع حرب غزة في أكتوبر 2023، معتبرة أن هذه الحرب شكلت الاختبار الأهم لمسار التحولات التي شهدتها الخطاب الإعلامي السعودي خلال العقدين الماضيين.

ففي الأشهر التي سبقت الحرب كانت المفاوضات المتعلقة بإمكانية إقامة علاقات بين "السعودية" و"إسرائيل" قد وصلت إلى مستويات متقدمة، وأصبح الحديث يدور حول الشروط والتوقيت أكثر مما يدور حول المبدأ نفسه. وبدأ في تلك المرحلة أن خطاب «السعودية أولاً» نجح في ترسيخ نفسه بوصفه الإطار المرجعي الرئيسي لفهم المصالح الإقليمية والسياسات الخارجية.

غير أن اندلاع الحرب في غزة وما رافقه من دمار واسع النطاق وخسائر بشرية كبيرة أعاد القضية الفلسطينية إلى مركز الاهتمام السياسي والإعلامي في المنطقة. وتوضح الدراسة أن فلسطين استعادت جزءاً مهماً من قدرتها على التأثير في الأجندة الإقليمية، كما تراجع الحديث عن التطبيع المباشر، وعادت المطالب المتعلقة بإقامة الدولة الفلسطينية لتحتل موقعاً بارزاً في الخطاب السياسي.

لكن الدراسة تشدد على أن هذه العودة لا تعني إلغاء التحولات التي شهدتها السنوات السابقة. ففلسطين عادت إلى المشهد الإقليمي في سياق مختلف تماماً عن ذلك الذي ساد خلال الانتفاضة الفلسطينية الثانية

أو خلال العقود السابقة. لقد عادت بعد سنوات طويلة من إعادة تشكيل الأولويات الوطنية وصعود مفاهيم جديدة تتعلق بالدولة الوطنية والمصالح المباشرة والأمن القومي.

ومن هنا تخلص الدراسة إلى أن حرب غزة لم تُنهَ مسار التحول الذي شهده الخطاب الإعلامي السعودي، لكنها كشفت حدوده. فقد أظهرت أن القضية الفلسطينية ما زالت قادرة على استعادة موقعها في الوعي العربي عند اندلاع الأزمات الكبرى، إلا أنها تعود اليوم إلى فضاء سياسي وفكري مختلف عما كان عليه في السابق.

وفي المحصلة النهائية ترى الدراسة أن التحول الأبرز الذي شهدته الفترة بين عامي 2000 و2026 لم يكن انتقال الإعلام السعودي من تأييد فلسطين إلى معاداتها، بل انتقاله من اعتبارها القضية المركزية الأولى إلى التعامل معها باعتبارها قضية مهمة ضمن منظومة أوسع من الأولويات الوطنية. وبين هذين الموقعين تشكلت معظم النقاشات والسجلات التي رصدتها الدراسة، والتي تعكس في جوهرها تحولات أعمق في فهم الهوية السياسية وحدود الالتزام بالقضايا العربية والإسلامية في زمن الدولة الوطنية وصعود خطاب المصالح.